Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتختلف عما وقَر فى نفس الكثيرين من صورتها فى آخر أيام الجاهلية . كانت بلاد العرب يومئذ ذات حضارة لاشيء يشبهها فى شبه الجزيرة اليوم ، كانت مكة وبعض بلاد الحجاز مدناً تجارية عامرة مزدهرة ، وكانت الطائف ذات الخصب موضع عناية من أهلها بحسن استغلال خصبها وبصيانة سلامتها ، وكان أهل تهامة وأهل الحجاز أولى ثقافة وحكمة وأدب ، وكان العرب على اتصال بالعالَم ينقلون تجارته بين الشرق والغرب مما زادهم علماً وزادهم براعة فى التجارة وأساليبها ، لكنهم كانوا يحيون حياة سياسية أشبه بحياة اليونان القديمة وبحياة بعض بلاد الغرب ، ومنها إنجلترا ، منذ قرون قليلة . كانوا قبائل ومدائن تحتفظ كلٌّ منها بوحدتها وبسلطانها وتدفع عن حياضها كل من يحاول الاعتداء على سيادتها أو على ثروتها . فلما بعث الله النبى العربى داعياً إلى التوحيد ، ألفى فى هذه القبائل قوة فى الجدل وصلابة فى الاستمساك بعقائدهم ونُظُمهم . فلما هدى الله الكثيرين من أهل يثرب إلى الإسلام وهاجر النبى إليهم وانتصر بهم وجمع كلمة العرب تحت لواء الدين الجديد ، استطاعت هذه الأمة الفتيَّة المستعدّة بحضارتها للنهوض أن تثب إلى حيث وثبتْ وأن تبثّ فى العالم حضارة هذا الدين الذى اختارها الله لتكون وطنه الأول .

كشفت لى هذه الصورة عن جانب من السر الذى كنت ألتمسه والذى كان خفيًّا عنى حين كنت أتصوّر بلاد العرب كلها ، كما يتصوّرها الكثيرون وادياً غير ذى زرع لا تصلح مقرا لحضارة يضيء نورُها العالم . كان أهلها شديدى المحافظة على عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا ذوى بأس وقوة فى هذه المحافظة . وقد كانت عقائدهم الوثنية تمسكهم دون الوثوب إلى دعوة العالم المفكك الأوصال يومئذ ليستظل بحضارة أجدر بالإنسانية مما كانت تدعو إليه بزنطية وفارس . فلما هدى الله العرب إلى الإسلام كانت تعاليم هذا الدين منارة الهدى للعالم ، وكان النبى ﷺ الأسوة والمثل بأدبه وخُلقه وقوّته على الحياة لنشر هذه التعاليم وإحياء الإنسانية بروحها السامى . وهذه الأسوة هى ماتحدّث به آثاره فى بلاد العرب حديثها البليغ الذى تهتزّ له النفس وتسمو به الروح إلى مراتبها العليا حيث تشرق الأرض بنور ربها ويرى الإنسان فيها فضائل الكون مجتمعة .